أبو عبيدة بن الجراح الجندى تحت إمرة أسامة بن زيد بن حارثة فى سريته إلى أُبُنى بقرب مؤتة

قبل أيام من مرض الرسول عليه الصلاة والسلام الذى توفى فيه، كان قد أمر المسلمين يوم الاثنين لأربع بقين من صفر للسنة الحادية عشرة للهجرة، بالتهيؤ والإسراع للخروج إلى أُبُنى.. بين عسقلان والرملة ـ بقرب مؤتة بالبلقاء، بين الشام ووادى القرى، لغزو الروم.. فلا يزال المسلمون يذكرون استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وقتلى وخسائر المسلمين يوم مؤتة.

وانتدب الرسول ﷺ كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار للخروج، ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلاّ انتدب فى تلك الغزوة، وكان منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعدة من الأنصار مثل قتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم ابن حَرِيش وغيرهم.

وفى الغد، يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر، دعا الرسول إليه أسامة بن زيد بن حارثة، وكان شابا فى نحو العشرين من عمره ـ وقال له: «يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى موضع مقتل أبيك (فى مؤتة)، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحا على أهل أُبنى، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلل اللبْث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك».

وبعد يومين، بدأ مرض الرسول ﷺ، فلما أصبح يوم الخميس خرج عليه الصلاة والسلام فعقد لأسامة اللواء بيده، وأوصاه فقال له: «اغزوا ولا تغدروا

ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا تمنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تُبْتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفِناهم واكفف بأسهم عَنَّا! فإن لقوكم وقد جلبوا وصخبوا فعليكم بالسكينة والصمت. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. وقولوا اللهم نحن عبيدك وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تغلبهم أنت! واعلموا أن الجنة تحت البارقة».

ويبدو أن مرض الرسول ﷺ، واستخلافه أبى بكر للصلاة بالناس ـ قد أرجأ انضمام الصديق لهذا الجيش، على أن اللافت أنه مع اعتراض البعض، وكان أشدهم فيما قيل عياش بن أبى ربيعة، على إمارة شاب على جلة المهاجرين الأولين والأنصار، ورد عمر بن الخطاب على من تكلموا بذلك، ولكنه رضى الله عنه ارتأى أن ينقل ما يقال إلى الرسول ﷺ، إلَّا أن المصادر لم تذكر أن أبا عبيدة ابن الجراح ضاق أو تحدث فى هذا الأمر، فلم يستنكف من تأمير شاب عليه، مع أنه من رجال الجهاد والحرب وصناديد القتال وتولى الإمارة على عدة سرايا، وأحسن القيادة والتصرف. ولكن هذا الأمين كان منصرفًا عن ذاته، غير معنى بصدارة، ينهض بواجبه فى صمت وتواضع بلا زهو ولا ظهور ولا استعراض.

وروى الرواة أن الرسول ﷺ غضب غضبًا شديدًا حين سمع ضيق البعض بولاية أسامة، وخرج رغم مرضه عاصبًا رأسه، فحدث الناس فى المقالة التى أغضبته، وأكد لهم أن أسامة بن زيد خليق بالإمارة جدير بها كما كان أبوه زيد بن حارثة الذى استشهد ـ أميرًا ـ فى مؤتة، ودعا عليه السلام المهاجرين والأنصار أن يستوصوا بأميرهم خيرًا.

اشتد المرض على رسول الله ﷺ قبل أن يخرج جيش أسامة، وفى يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول، جاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون الرسول عليه السلام، وفيهم عمر بن الخطاب، والنبى يقول لأصحابه: «أنفذوا بعث أسامة»! وقيل إن أم أيمن رضى الله عنها دخلت فقالت: «أى رسول الله، لو تركت أسامة يقيم فى معسكره حتى تتماثل (للشفاء)، فإن أسامة إن خرج

على هذه الحالة لم ينتفع بنفسه ـ فعاد الرسول ﷺ يقول: «أنفذوا بعث أسامة»!

مضى الناس إلى المعسكر فباتوا ليلة الأحد الحادى عشر من ربيع الأول، ورسول الله عليه السلام ثقيل مغمور، وهو اليوم الذى صبوا الدواء فى فمه، وقدم أسامة بن زيد فدخل عليه وعيناه تهمُلان، وعنده العباس والنساء حوله، فانحنى أسامة فقبله والنبى عليه السلام لا يتكلم، وجعل ﷺ يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة كأنه يدعو له.

ثم دخل يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول، وأصبح الرسول مفيقًا، وجاء أسامة فقال له: «أغْدُ على بركة الله». فودعه أسامة وخرج إلى معسكره، ثم دخل أبو بكر وكان فيما يبدو قد استبعده من البعث ليصلى بالناس، فقال للرسول: «يا رسول الله أصبحت مفيقًا بحمد الله واليوم يوم ابنة خارجة فأذَنْ لى». فأذن عليه السلام له، فذهب رضى الله عنه إلى داره بالسُنْح بأعالى المدينة، بينما انطلق أسامة إلى عسكره ليأمر الناس بالرحيل.

بيد أنه وهو يريد والمسلمون الركوب، أتاهم الخبر بأن رسول الله ﷺ يموت. فأقبل أسامة إلى المدينة وأقبل معه الصاحبان عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه فتوفى عليه الصلاة والسلام فى ذلك اليوم. فلما شاع الخبر جاء المسلمون الذين عسكروا بالجُرْف على ثلاثة أميال من المدينة، وأتى بُرَيدة بن الحصيب بلواء أسامة معقودًا حتى أتى باب الرسول فغرزه عنده.

فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة، وقد مرت بنا أحداث السقيفة، أمر بُرَيدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضى إلى وجهته، وألا يحله حتى يغزوهم، وقال لأسامة: «أَنْفِذ فى وجهك الذى وَجَّهك فيه رسول الله ﷺ»، وأمر الناس بالخروج إلى حيث عسكروا بموضعهم الأول فى الجُرْف.

وقبل أن يبدأ التحرك، أتت الأخبار بأن بعض أحياء العرب قد ارتدت عن الإسلام، ومنهم من بقى على إسلامه ولكن أراد منع الزكاة، فشق ذلك على كبار

المهاجرين الأولين، ودخل على الخليفة: عمر، وعثمان، وسعد بن أبى وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، فقالوا له: «يا خليفة رسول الله، إن العرب انتقضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئًا. اجعلهم عُدّة لأهل الردّة، ترمى بهم فى نحورهم! وأخرى، لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها وفيها الذرارى والنساء، فلو استأنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرانه (الجران: باطن عنق البعير إذا مده ليستريح، والمعنى أى حتى يقر قراره ويستقيم)، وتعود الردَّة إلى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة حينئذ.. فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا».

فلما استوعب أبو بكر كلامهم، سألهم: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئًا؟ قالوا: لا، قد سمعت مقالتنا. فقال أبو بكر: «والذى نفسى بيده، لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدأت بأوّل منه، ورسول الله ينزل عليه الوحى من السماء يقول: أنفذوا بعث أسامة: ولكن أكلم أسامة فى عمر فلا غناء بنا عنه، والله، ما أدرى يفعل أسامة أم لا. والله إن أَبَى لا أُكرهه!

وروى الطبرى بسنده، فى تاريخه[1]، أن رجالاً من الأنصار تحدثوا إلى عمر ابن الخطاب أن يحدث أبا بكر فى أن يولى أمرهم رجلاً أقدم سنًا من أسامة، ولم يشأ عمر أن يقبل المهمة إلّا بإعلام أسامة، ثم خرج عمر بأمر أسامة، فأتى أبا بكر فأخبره بما قاله أسامة، فقال أبو بكر: «لو خطفتنى الكلاب والذئاب - لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ فقال عمر: فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلاً أقدم سنًا من أسامة. فوثب أبو بكر - وكان جالسًا - فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه»؟!

خرج عمر إلى الناس فسألوه: ما صنعت؟ فقال: امضوا عنى ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت بسببكم من خليفة رسول الله![2].

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٢٦.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٢٦٦.

عرف القوم أنه لا سبيل لإثناء أبى بكر، ومشى رضى الله عنه إلى بيت أسامة فكلمه فى أن يترك عمر وأن يأذن له فى التخلف، ففعل. وخرج الصديق ليأمر مناديه أن ينادى بلسانه: عزمت ألا يتخلف عن أسامة من بَعْثه من كان قد انتدب معه فى حياة رسول الله ﷺ، فإنى لن أوتى بأحدٍ أبطأ عن الخروج معه إلاّ ألحقته به ماشيًا.

لم يتخلف عن البعث أحد، ولم يستأذن أبو بكر إلّا فى عمر، فخرج المهاجرون الأولون مع من خرجوا: أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد ابن نفيل ومن مَرّ بنا من الأنصار، خرجوا تحت إمرة أسامة بن زيد، لم يتخلف منهم أحد. خرجوا فى نحو ثلاثة آلاف رجل، وفيهم ألف فارس، وخرج أبو بكر يودع الجيش ماشيًا، وأسامة راكبًا، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبنّ أو لأنزلنّ! فقال الصديق: «والله لا تنزل، والله لا أركب! وما على أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة»! وسار أبو بكر إلى جوار أسامة ساعة، فلما بلغ الموضع الذى أراد، وقف فقال فى الناس:

«يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تُغِلّو، ولا تغدِرُوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ـ ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةَ ولا بعيرًا إلّا لمأكلةٍ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فَرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها. اندفعوا باسم الله». وقال رضى الله عنه لأسامة: «اصطنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم، وابدأ ببلاد قضاعة، ثم اءت آبل، ولا تقصّرنّ فى شىء من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا تعجلنّ لما خلّفتَ من عهده.

خرج أسامة سريعًا يغذ السير إلى وجهته، وتحت إمرته أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم من أجلة الصحابة، فوطئوا بلادًا

هادئةٍ لم يرجعوا عن الإسلام مثل جُهينة وبعضٍ من قضاعة، وأوقعوا بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت فانتصروا وغنموا وتابعوا المسير حتى نزلوا وادى القُرى، فساروا إلى أبْنى فى عشرين ليلة، وعاد أحد العيون من بنى عذرة، ليخبر أن الناس غافلون ولا جموع لهم، وينصح أسامة أن يسرع السير قبل أن تجتمع الجموع، فعبأ أسامة أصحابه ثم شن غارة ظفر والمجاهدون الأبرار فيها، وكروا عائدين موفورين، ومن وادى القرى بعث أسامة بشيرًا إلى المدينة بأنهم آيبون ظافرون سالمون، حيث خرج أبو بكر والمسلمون لاستقبالهم على مشارف المدينة، مسرورين بعودتهم سالمين، ومع عودتهم مظفرين رسالة إلى جنبات الجزيرة العربية، بأن المسلمين ليس بهم ضعف حتى يرجعوا عن إنفاذ بعث كان قد أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أن يلاقى ربه.

فى الشــام

أشرنا إشارة عابرة إلى حركة المرتدين فى بعض أحياء العرب، وقد واجهها الصديق بحزم وعزم، وكان أول الحزم إصراره رغمها على خروج جيش أسامة ابن زيد، ويحصى العقاد فى«عبقرية خالد» أسباب الردة، فيردها إلى عدة عوامل وجيزها:

١ – تمرد القبائل القوية على قريش، وأقواها القبائل التى تنتمى إلى ربيعة ومضر، فإنها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة.

٢ – ثورة البادية على الحاضرة، فما زال من دأب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها.

٣ – إغراء المحاكاة بتمثل بعض القبائل بنجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة، وطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى تحقيق مثل هذا المطلب.

٤ – ضيق بعض القبائل بفريضة الزكاة التى فرضها الإسلام على كل من يستطيع، ضنًا منهم بالمال الذى حملوه على محمل الإتاوة التى أنفوها،

ورأوا أنها تخالف ما ألفوه مع أكاسرة الفرس وقياصرة الروم. فقد كانت القبائل التى على تخوم الإمبراطوريتين تأخذ منهما أكثر مما تعطى. وكانت الإتاوات التى تفرض عليهم من هذه وتلك ـ أقل من المنح التى توزع عليهم.

٥ - أن الدين الجديد لم تكن جذوره قد رسخت بعد فى نفوس الأقصين من أعراب البادية، ولم تهجز طباعهم بعد عادات الجاهلية وما ألفوه فيها.

٦ - الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية التى سعت كل منها بما يوائمها وبما هى قادرة عليه لضرب الإسلام فى معقله، وهذا ما يفسر أن ادعاء النبوة ظهر من العرب الموالين لفارس ولم يظهر من العرب أولياء الروم.

ولأننا نتحدث عن أبى عبيدة بن الجراح، ولم يكن ممن ندبوا لحرب المرتدين والمتنبئين، فإن ما يجزئنا هنا هو أن نسجل همة وحزم أبى بكر فى مواجهة هذا الأمر، الذى بدا فيه أن المدينة ومكة والطائف وجيرتهم تقف فى وجه البادية العربية، وأنه بين القادة الذين ندبوا لهذه المهمة واضطلعوا بها، يطل القائد البطل خالد بن الوليد، صاحب أوفر سهم فى القيام بهذا الواجب، حتى سبقته هيبته إلى هؤلاء وأولاء، وحتى قال فيه صاحب دومة الجندل: «أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أصمد فى الحرب، ولا يرى وجه خالد قومٌ أبدًا ـ قلّوا أو كثروا ـ إلاّ انهزموا عنه، فأطيعونى وصالحوا القوم». وحتى إن الخليفة أبا بكر الصديق كان يقول وهو يزف كل يوم إلى المسلمين بالمدينة أنباء انتصارات خالد على المرتدين والمتنبئين: «أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد؟!».

انشغل المسلمون آخر ما تبقى من العام الحادى عشر للهجرة، وطول العام الثانى عشر للهجرة، فى قتال المرتدين والمتنبئين، حتى إذا ما أطل العام الثالث عشر للهجرة، واصل أبو بكر ما كانت قد بدأته على أطراف الروم ـ بعثة أسامة بن زيد التى عادت سالمة موفورة، بعد أن أوفت بمهمتها.

قبل نهاية العام الثانى عشر للهجرة، تحدث أبو بكر إلى كبار الصحابة فى عزمه مواصلة ما كان الرسول ﷺ قد عول عليه ـ ورغبته أن يوجه المسلمين

بأهليهم إلى الشام، لقتال الروم الذين غلبوا العرب فيها، فأجابوه بأنهم طوع أمره لتوجيههم حيث يشاء، فبادر الصديق بكتابة الكتب وبعثها إلى اليمن وأهل مكة وما حولها، عن عزمه التوجه إلى الشام لاستردادها من الروم، وكتب في كتبه إليهم: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١٤]. وأقام الصديق ينتظر جواب ما أرسله من كتب، فما مرت الأيام حتى قدم إليه أنس بن مالك الذى أوفده بكتبه إلى اليمن، يبشره بقدوم أهل اليمن، وقال له: «يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلاّ وبادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك.. وقد تجهزوا فى العدد والعديد والزرد النضيد. وقد أقبلت إليك مبشرًا بقدوم الرجال، وقد أجابوك شعثًا غبرًا وهم أبطال اليمن وشجعانها».. وكانت «حمير» أولى القبائل وصولاً إلى المدينة من قبائل اليمن، وأقبلت من بعدها قبائل «مذحج» ثم قبائل «طئ»، وأقبلت«الأزد» فى جموع كثيرة، ثم جاءت من بعدهم «بنو عبس»، ثم «بنو كنانة»، وتتابع وصول قبائل اليمن وما حول مكة، وطفق الحاضرون إلى المدينة المعسكرون فيها وما حولها، ينتظرون على شوق الخروج إلى الشام، التى سجل أبو عبيدة بن الجراح صفحات رائعة فى ربوعها.

ومن الظلم لأبى عبيدة بن الجراح، وللتاريخ معًا، أن نختزل سيرته فى فتوح وإمارة الشام، باقتطاع وسرد المواقف الرائعة المروية عنه هنا وهناك فى المصادر التاريخية.. فدور أبى عبيدة، وقيمته، أنهما كانا فى سياق عام ينبغى أن يكون حاضرًا حتى وإن كان الهدف «سيرة» أبى عبيدة.. فالسيرة ـ أى سيرة ـ ليست معزولة عن إطارها التاريخى والظرفى والجغرافى..

على أن هذه الغاية قد لا تستدعى التفصيل فى بيان مجريات الأحداث والمواقع، فذلك يخرج عن مقاصد وحدود هذا الكتاب، وإنما نعرض لما يجب عرضه لتقدير دور وعمل أبى عبيدة بن الجراح، جنديًا وقائدًا ثم أميرًا على الشام

كله، وتقدير كفايته وبيان عظمة شخصيته فيما اضطلع وقام به من أعمال وما ضربه من أمثلة على إنكار الذات وإيثار الصالح العام فى كل الأحوال.

* * *

كان من استعدادات الصديق المبكرة للشام، أن عقد لواءً لخالد بن سعيد ابن العاص، على ألفين من العرب، وسيره لحماية حدود الجزيرة العربية مما يلى الشام، وأمره أن يقيم على «تيماء»، لا يجاوزها درءًا لمن وراءه من المسلمين، فذهب ومعه جيشه حتى بلغ موضع ما وجه إليه، واجتمعت له هناك على حدود الشام بإزائه ـ قبائل من العرب ومعهم جنود الروم، فحمى خالد وأصحابه وتحمسوا حين رأوا هذا العدو بإزائهم، فهاجموهم وهزموهم، وأطمع النصر خالدًا أن يواصل لعله يظفر فى الشام بمثل ما كان يظفر به سميه خالد بن الوليد فى العراق، فأوغل فى أرض الشام بلا تحسب، وتركه الروم وحلفاؤهم من العرب يوغل حتى إذا بعد ما بينه وبين الجزيرة العربية، كروا عليه فحصروه وقتلوا ابنه سعيدًا، واضطر هو إلى أن يفر فيمن استطاع ممن معه، وأمعن فى فراره حتى جاوز حدود الجزيرة ودنا من المدينة، فلما عرف أبو بكر كتب إليه أن يقيم مكانه ولا يبرحه ولا يأتى المدينة، وكان عمر وعلى وغيرهما من الصحابة قد نصحوا أبا بكر بألاّ يؤمره إلى حدود الشام قائلين: «إنه رجل فخور مغرور سريع الإقدام سريع الإحجام»، فلما كان منه ما حدث، عزله الصديق مقرًا بأن من نصحوه كانوا أعلم به منه.

هنالك، ولمحو أثر هذه الهزيمة، قر عزم أبى بكر على الإسراع بتوجيه الجيوش التى أزمع تسييرها إلى الشام، وكان قد أرسل إلى عمرو بن العاص يخبره بأنه كان قد رده على العمل الذى كان الرسول ﷺ قد ولاه إياه من صدقات سعد وهُذَيْم وعُذْرة وغيرهم، ووعده بأخرى، فإنه قد أحب أن يفرغه لمهمة هى خير له فى الدنيا والآخرة، إلاّ أن يكون ما هو فيه أحب إليه.

فكتب إليه عمرو أنه سهم من سهام الإسلام، يوجهه إلى حيث يفضل، فأمره الصديق وأمر الوليد بن عقبة، أن يجمعا العرب ففعلا، واكتملت فى المدينة الجموع المتوثبة للخروج إلى الشام.

* * *

فى أوائل العام الثالث عشر للهجرة بشهر صفر الموافق أبريل ٦٣٤ م، عقد الصديق للخروج إلى الشام أربعة ألوية وحدد لكل منها وجهته بالشام، كان أولها خروجًا إلى الشام ـ اللواء الذى عقده ليزيد بن أبى سفيان، وخرج فى نحو سبعة آلاف، ووجهته دمشق. وخرج عمرو بن العاص على رأس جيش يربو على ذلك قليلًا، ووجهته فلسطين. ثم سير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى «الجابية»، وهى قرية من أعمال دمشق، ووجهته حمص، وسير شرحبيل بن حسنة فى نحو ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى وادى الأردن.

وقبل بدء انصراف الجيوش الأربعة من المدينة، قام أبو بكر فى الناس خطيبًا، فحث الناس على الجهاد، وقال فيما قال: «ألا لكل امرئ جوامع، فمن بلغها فهى حسبه، ومن عمل لله كفاه الله. عليكم بالجد والقصد فإن القصد أبلغ.. ألا إنه لا دين لأحد لا إيمان له، ولا إيمان لمن لا خشية له، ولا عمل لمن لا نية له..»

والغالب على الظن فى تعيين طرق مسيرات هذه الجيوش ووجهاتها، مراعاة توفير الماء والكلأ من ناحية، وتشتيت جموع الروم من ناحية أخرى وتوزيع أغراضها حتى لا تجتمع على غرض، أو موضع واحد، وقد يكون داخلًا فى الاعتبار اتخاذ الحيطة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم، وضمان أن يكون فى الباقين مدد لمن عساه يُحصر أو يُحاصر منها، فيكون كل جيش من الجيوش الأربعة مددا لمن يحتاج إلى مددً من الجيوش الأخرى، وربما كان ذلك درسًا مستفادا مما حدث مع خالد بن سعيد بن العاص.

خرج الخليفة أبو بكر لتوديع الجيوش الأربعة تباعًا، ويورد المؤرخون أنه شيع جيش يزيد بن أبى سفيان ماشيًا، وأوصاه وصية طويلة، ومما قاله له فيها: «إنى

وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك. فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس أشدهم تقربًا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد (بن سعيد بن العاص)، فإياك وعبِّيَّة الجاهلية (الفخر والعجب)، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها.. وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، وأنزلهم فى ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى كلامهم.. وأكثر حرسك ووزعهم فى عسكرك، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك، وجالس أهل الصدق والوفاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول (السرقة من المغنم) فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم فى الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له...».

ولم يسهب الرواة فى إيراد وصايا الصديق لباقى الأمراء، وذكر الواقدى بعض وصايا الصديق لعمرو بن العاص، ودارت حول المعانى التى رأيناها فى وصيته ليزيد بن أبى سفيان، وزاد عليها توصيته بألاّ يسلك الطريق التى سلكها يزيد وشرحبيل، وأن يسلك طريق إيليا (بمنطقة العقبة حاليًا)، وذكر الواقدى أن أبا عبيدة بن الجراح حضر وصايا الصديق إلى عمرو، وأنه قال لأبى عبيدة لاحقًا: لقد سمعت ما وصيت به عمرًا.

وذكر بعض الرواة، ومنهم الواقدى فى فتوح الشام، أن الخليفة وجه الأمراء إلى أنهم إذا اجتمعوا فأميرهم أبو عبيدة، وهو ما يؤيده مكانة وسابقة أبى عبيدة فى الإسلام، وتقدير الصديق له ومعرفته ببلائه السابق وبمناقبه. وهذا الترجيح الذى نميل إليه لا ينفيه أو يتعارض معه ما نقله الرواة من حديث خالد بن الوليد

للأمراء يوم اليرموك وما تضمنه من دعوة إلى الاجتماع على قيادة واحدة، فقد كان ذلك أقرب لما يسمى «تنظيم التعاون» فى المصطلحات العسكرية الحديثة.

ويجتمع الرواة والمؤرخون، على أن أبا عبيدة أقام بمن معه بالجابية، وهى قرية من أعمال دمشق، وأقام يزيد بن أبى سفيان بالبلقاء، وهى كورة من أعمال دمشق، وأقام شرحبيل بن حسنة بوادى الأردن على مرتفع قريب من طبرية، وأقام عمرو بن العاص بالعَربة، وهى موضع فى فلسطين، بينما كان عكرمة بن أبى جهل الذى أُرسِل مَددًا لخالد بن سعيد بن العاص حين حُصر، قد أقام بمن معه بعد مداورة ناجحة على الحدود بين الجزيرة والشام ليكون درءًا للمسلمين.

وكان الروم قد دخل فى روعهم ـ قبل وصول الجيوش الأربعة إلى الشام، أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين: الفرس والرومان، ورسخ لديهم أن ما أصابهم من هزيمة وفرار خالد بن سعيد بن العاص، سيصرفهم عن معاودة التعرض لهم فى الشام.. فلما جاءتهم الأنباء بتوالى وصول الجيوش الأربعة، انتفضوا وطفقوا يتجمعون ويتهيأون لقتالهم، فدفعوا قبالة كل جيش بما يفوقه عددًا وعدة، ودارت بين الطرفين مناوشات تراوحت النتائج فيها، واستشهد فى إحداها بمرج الصفر قرب الجولان خالد بن سعيد بن العاص وقيل بل نجله، ونمى إلى علم أمراء الأجناد بالشام، أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير فى أنطاكية وجيش آخر فى جوار بيت المقدس، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفًا، وعدة الجيش الثانى سبعين ألفًا، وهى أرقام قد لا تخلو من المبالغة، ولكن على أى التقديرات فإن ما حشده الروم، يورى بأن حشدهم يربو على ثلاثة أضعاف جيوش العرب الأربعة، ومن ثم تشاور القادة الأربعة فيما يفعلون قبل أن يجتمع جيشا الرومان، فأشار عمرو ابن العاص بأن يتجمعوا فإنهم إن اجتمعوا لن يُغْلبوا من قلة، وأنهم إن تفرقوا فقد لا تنهض كل فرقة منهم بمن فى مواجهتها لكثرة عدوهم، وجاء جواب الصديق معززًا هذا الرأى، فكتب أبو بكر إلى الأمراء: «اجتمعوا فتكونوا عسكرًا

واحًدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإن مثلكم لا يؤتى من قلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة إذا أتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا منها، واجتمعوا باليرموك متساندين وليصلْ كل واحد منكم بأصحابه».

اجتمع المسلمون كما أمرهم أبو بكر باليرموك. وكان مجموع عدتهم نحو سبعة وعشرين ألفًا، غير ستة آلاف كانوا مع عكرمة بن أبى جهل، بينما جمع الروم حشودهم قبالتهم وعليهم التّذارق (وهو تيودور)، وعلى مقدمته جرَجة، وعلى الجانبين الدُّراقص وياهان، فنزلوا «الواقوصة» على ضفة اليرموك، وصار الوادى خندقًا لهم، وهو فرجة بين جبلين لا تدرك، وانتقل المسلمون فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم، وبذلك لم يعد للروم طريق إلّا على المسلمين، فقال عمرو بن العاص: «أيها الناس! أبشروا، حُصِرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير»!

وجعلت الأنباء تترى إلى أبى بكر فى المدينة بما يواجهه المسلمون إزاء جحافل الرومان الذين حشدوا إليهم جيشا ضخما فى العدد والعتاد، يبلغ تعداده أضعاف جيوش المسلمين مجتمعة، واستمد أمراء الأجناد أبا بكر، فقر عزمه أن يستنهض للمهمة سيف الله المسلول خالد بن الوليد الذى أنجز بطولات رائعة وانتصارات مشهودة على المرتدين والمتنبئين، فقال رضى الله عنه لمن حوله من الصحابة «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وكانت ثقة أبى بكر فى خالد بن الوليد كبيرة، وقدر أنه بعد أن استوت الأمور فى العراق فى حرب المرتدين والمتنبئين، فإن الشام أحوج اليوم إلى البطل الميمون، فكتب إلى خالد ينتدبه للشام، وأمره بأن يأخذ معه نصف الناس، ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيبانى، ووعده بأنه إذا انتصر فى الشام أعاده إلى العراق، وخرج خالد إلى الشام ومعه تسعة آلاف فى أرجح الروايات.

وإذ انتدب أبو بكر خالدًا إلى الشام، فإنه لم يجد بنفسه حاجة إلى ما يشبه الاعتذار أو التبرير، إلّا مع أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح، فكتب إليه

ما يكاد يكون اعتذارًا عن تولية خالد وتأميره، وهو ما يؤكد ما قاله بعض الرواة من أن أوامر الصديق للقادة الأربعة، أنهم إذا اجتمعوا فأميرهم أبو عبيدة، فهو الوحيد الذى كتب إليه الصديق يقول: «سلام الله عليك، أما بعد.. فقد وليت خالدًا قتال العدو فى الشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع.. فإنى لم أبعثه عليك ألاّ تكون عندى خيرًا منه، ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام».

وهذا الكتاب يؤكد أن أبا عبيدة، كان أمير الأمراء بالشام إذا اجتمعوا، وهو ما يصادقه أنه الوحيد الذى كتب إليه خالد معتذرًا عن مقدمه عليه، فيقول الرواة إنه كتب إليه: «سلام الله عليك، وبعد.. فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام والقيام على جندها، والتولى لأمرها. والله ما طلبت ذلك قط، ولا أردته إذ وليته.. فأنت سيد المسلمين ولا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك».

كان على خالد أن يمضى سريعًا لنجدة المسلمين بالشام، فلم يضيع وقتًا، وارتحل بمن معه ليلاً، وكان عليه أن يقطع فى أقصر وقت مسافة تتراوح بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ميل، أى ما يقرب من نحو ألف كيلو متر.. وأمامه إلى غايته أربعة طرق، منها ما هو موفور بالماء والكلأ، ولكنها طرق طويلة ـ فأجمع أمره على أن يسلك أقصرها، ولكنها طريق صعبة، وصحراء مقفرة، بل مفازة مهلكة، فالتمس دليلا، فأتوا إليه برافع بن عميرة الطائى، وكان قد انحسر نظره، ولكنه كان أعلم الأدلاء بهذه المفازة، فحذر خالدًا من سلوكها، ولكن خالد أجاب بأنه لا بد له من ذلك، وبأن القوة تأتى على قدر النية، فلما وصلوا إلى أرض «السماوة»، وهى البادية بين الكوفة والشام، حذره الدليل بأنه لن يطيق عبور هذه المفازة المهلكة بالخيل والأثقال، قائلا له: «فو الله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه».. ولكن خالد رأى أنه لا بد له من ذلك ليخرج من وراء جموع الروم بالخيل والعتاد حتى لا يحبسه شىء عن غياث المسلمين، ويروى الرواة أن الدليل طلب أن يكثروا

من المياه ما استطاعوا، وأن يصر كل منهم أذن ناقته على ماء بقدر استطاعته، لأنها المهالك إلَّا ما دفع الله، وطلب من خالد أن يأتوه بعشرين جزورًا عظامًا سمانًا مسان، وطلب تعطيشها حتى إذا أجهدها العطش يسقونها عَلَلًا بعد نهل، والعلل هى الشربة الثانية، والنهَّلَ الأولى، ثم يصرون آذان الإبل ويشدون مشافرها حتى لا تجتر. وفى الطريق جعلوا يشقون بطون الإبل ويمزجون ماء فى كروشها بما كان من الألبان ويسقون الخيل، ويأكلون اللحم، فلما مضت أربعة أيام ودنوا من موقع يقال له «العلمين»، طلب الدليل من الناس أن ينظروا هل يرون شجرة عَوْسج (أراك) كقعدة الرجل، فالتمسوها وأخبروه أنهم لا يرونها، فقال الدليل: «إنا لله وإنا إليه راجعون. هلكتم والله وهلكت معكم»! وألح عليهم ـ وكان أرمد، أن يعاودوا البحث، وجعل يتحسس معهم السهل ثم ضرب بعصاه فى موضع فنظروا فرأوها وقد قطعت وبقى منها بقية، فكبروا. وطلب إليهم رافع أن يحفروا فى أصلها، فلما حفروا نبع لهم الماء، فشربوا حتى ارتووا، وسقوا الخيل والإبل.

وجملة القول أن خالدًا قطع المسافة فى ثمانية عشر يومًا، فكان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد، وقمع فى طريقه كل مقاومة صادفته، حتى طلع على المسلمين باليرموك فى ربيع الآخر سنة ١٣هـ.

* * *